كنا في فرح على فوز رجل اختار طريقه وقام بواجبه، ففاز بأعلى وأثمن ما يتمناه الرجال ممن في مثل حال شعبنا، وكنا في حزن على فراق رجل نشعر أن فراقه قد ترك فراغاً ليس من السهل أن تملأه أو يملؤه غيره.

فور سماعنا الخبر سقطت دمعة حادة على وجنة إبراهيم، مسحها سريعاً وهو يحاول إخفاء ذلك ثم قال: الحمد لله الذي أكرمه بالشهادة، والله إن ياسراً يستحقها، نسأل الله أن يتقبله في الصالحيين والشهداء، ثم خرجنا مسرعين لنقوم بواجبه، فنقف مع أهله، أقمنا عريشاً كبيراً مغطى (بالشادر) وأحضرنا الكراسي وجلسنا مع عدد من أهله وجيرانه لاستقبال وفود المعزين. رأيت أمه وزوجته في حالة غريبة كذلك، يغالبهما البكاء وأمي إلى جوارها وهما تحاولان أن تواسياها بدلاً من أن تفعل هي ذلك، وتقول إحداهما: الحمد لله لقد نال أسمى ما تمنى...الحمد لله، وقد كان يشدد علينا ألا نبكي عليه قائلاً: الشهداء لا يبكى عليهم ولا يتم العزاء فيهم، وإنما يودعون بالزغاريد، ويبارك لأهلهم باستشهادهم، فتنطلق زغاريد النساء، فلا أمتلك القدرة على حبس دموعي، وأنا أعجب لهذه الحالة التي هي بها، فقد اعتاد شعبنا أن يبكي الشهداء، أما الآن فبالزغاريد يودعون، والأعجب أنهم كانوا يوزعون البقلاوة على الذين جاءوا للعزاء، فيرتبك المعزون هل يرددون كلمات العزاء أم كلمات التهنئة والمباركة.

وبينما نحن في خيمة العزاء جاءت قافلة كبيرة من سيارات ومركبات الاحتلال، داهمت المكان، واقتحمت بعض المركبات الخيمة، فهدتها وكسرت بعض الكراسي، فانفتحت مواجهات عنيفة بين الحشد وبين قوات الاحتلال، بعد انصرافهم أعدنا نصب الخيمة، وعاد تدفق وفود المعزين كما كان دون توقف.

يومها وزعت صور ملونة كبيرة للشهيد وقد تنافس الناس على أن تنالهم إحداها، وألصق الكثير منها على جدران الأزقة في المخيم، فلا تسير في زقاق إلا وصورته أمامك، وصنع الكثيرون لها إطارات وعلقوها على واجهة غرفة الضيوف عندهم. أما إبراهيم فلم يعلق الصورة، وحين سألته لم لا يُعلق صورة صديقه الحميم، قال هي معلقة في أعماق روحي يا أحمد، وقد كانت زوجته حاملاً فقال: لئن رزقت ولداً سأسميه ياسراً إن شاء الله.

يحيى يترك بيرزيت في عطلة نهاية الأسبوع، عائداً إلى قريته، وبعد رؤية أهله خرج لصلاة العصر في المسجد هناك، التقى بأحد أصدقائه وخرج معه للالتقاء ببعض المطاردين من المجاهدين الذين يقيمون في القرية.